العدد الثالث والعشرون
2006

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1374 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2006 مسيحي

د. جمعة محمد الزريقي
كلية الدعوة الإسلامية

إن تاريخ بلادنا مليء بالصور الجميلة لحياة رجالها العلماء والفقهاء من كبار رجال التصوف، وهي صور وإن كانت معلومة لمتتبعي تاريخ التصوف في ليبيا، إلا أنها مجهولة للغالبية العظمى من الدارسين والمثقفين، لذلك تحتاج إلى من يكشف عنها، ويقوم بالتعريف بها للجيل الحاضر والأجيال المقبلة، وتاريخ التصوف في بلادنا ما زال بكراً في الدراسات والبحوث، فحري بنا أن نشمر على سواعدنا للبحث والتنقيب، والدراسة والتمحيص لهذا التراث الضخم الذي تركه الأجداد، باتباع الأسلوب العلمي، حفظاً لجهودهم، وتواصلاً على خطاهم، ووفاء لإخلاصهم.

وسعياً وراء ذلك، نقدم في هذه الورقات أحد علماء التصوف الكبار، وهو من كبار رجال الطريقة العيساوية في طرابلس الغرب، ممن ساهموا بدور

كبير في تجسيد رسالة التصوف، وإرساء مبادئه قولاً وعملاً، فمن خلال سيرته التي سنستعرضها، يتضح لنا أن هذا العالم الجليل والمربي الفاضل، والمصلح الكبير، المجاهد في سبيل الله، لم ينل حظه من التعريف به، ودراسة حياته وسيرته، ومواقفه المشرفة في سبيل الحق، وآثاره العلمية، وقد وقفت على بعض المصادر المخطوطة، تمكنت من خلالها من الاطلاع على جوانب أخرى في حياة هذا العلم، لها اتصال بتاريخ البلاد، لم تشر إليها المصادر القليلة التي ترجمت له، والتي غفلت عنها وعن آثاره العلمية التي تركها، وهي تدل على أن ما قام به هذا العالم الصوفي الجليل يبرهن على أن التصوف ليس دروشة وخرافات، وانغلاقاً عن الناس، وابتعاداً عن المجتمع، وهروباً من الواقع، وإغراقاً في الكرامات، وقولاً بالغيبيات، وانشغالاً بالملهيات، إن التصوف عكس ذلك تماماً، إنه باختصار رسالة سامية.

وسوف نتناول ـ بإذن الله تعالى ـ حياة هذا المصلح الكبير، في فقرات، نخصصها لإلقاء الضوء على مولده ونسبه وحياته، وتحصيله العلمي، وأخذه الطريقة الصوفية، ونضاله وجهاده في نصرة الحق، وأثاره العلمية، ثم ختام حياته، وذلك على النحو التالي:

أولاً ـ مولده ونسبه:

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد المسعودي، بن محمد التواتي، بن محمد المسعودي، بن محمد الصيدي، ينتهي نسبه إلى الولي الصالح سيدي محمد الصيد[1] ومنه إلى الولي الصالح سيدي عبد السلام بن مشيش، دفين المغرب[2] ولد الشيخ محمد المسعودي سنة 1214هـ، (1799ف) في مدينة

(1) هو الشيخ محمد الصيد أحد أعلام الطريقة العيساوية، كان من الصالحين توفى سنة 1050هـ ودفن في الهنشير، وقبره مشهور، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لأحمد النائب ص238/ 1، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس ليبيا، ط2.

(2) هو الشيخ عبد السلام بن مشيش الحسني الشريف شيخ الإمام الشاذلي، توفى سنة 625هـ وهو شيخ الإمام الشاذلي، الشيخ الكامل، تأليف الأستاذ أحمد القطعاني، ص179 هامش رقم 9، وفي معجم الفرق والمذاهب الإسلامية أنه مؤسس الطريقة المشيشية توفى سنة 824هـ، ص269.

طرابلس، لم تذكر المصادر مكانه تحديداً، والراجح أنه ولد في منطقة الهنشير، شرقي طرابلس، قال الأستاذ أحمد النائب: إن بيته بيت علم وبركة وصلاح من أسلافه الكرام[3] تربى في كنف والده إلى أن بلغ من العمر سبع سنوات، ثم توفي والده، فحضنته جدته لأمه السيدة الزهراء بنت السيد أحمد بن حامد الصيدي، إلى أن توفيت، وهو آنذاك ابن اثنتي عشرة سنة، حفظ القرآن الكريم على يد أستاذه ومربيه العالم سيدي الشيخ محمد بن علي بن عبد النور[4] كما تلقى عنه بعض العلوم الأخرى، ولازم الشيخ محمد المسعودي خدمة شيخه المذكور سنوات، وكان شيخه قد أخذ العلوم عن عمه الأستاذ أبي إسحاق إبراهيم بن عبد النور، وأصله من زليطن، درس في الأزهر الشريف، ولما عاد إلى وطنه سكن في الهنشير[5]، والشيخ إبراهيم أخذ عن عدة شيوخ من مصر كان من أجلهم الأستاذ الكبير والعلم الشهير الشيخ علي الصعيدي العدوي المالكي صاحب المؤلفات المشهورة[6] ويعتبر الشيخ إبراهيم من تلاميذه[7].

---

(3) نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، للأستاذ أحمد النائب، ص171، تحقيق وتقديم الأستاذ علي مصطفى المصراتي، منشورات المكتب التجاري بيروت، 1968ف.

(4) النفحات القدسية في الرحلة الحجازية، للشيخ محمد بن علي الشريف زغوان، مخطوط لدى أسرة المؤلف، ص13. والشيخ محمد بن علي بن عبد النور، لم أعثر على ترجمته، وهو دون شك من أسرة عبد النور التي ينتمي إليها الشيخ الأمين العالم، وسكنها في منطقة الهنشير شرق مدينة طرابلس، يراجع كتاب منح رب العالمين في مناقب شيخنا الأمين، من تأليف الشيخ أحمد بن حمادي، رسالة جامعية من تحقيق الأستاذ بشير عبد الله القلعي، جامعة 7 إبريل الزاوية العام 2000 2001.

(5) هو الشيخ إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد النور العالم، ولد زليطن، ثم درس في الأزهر الشريف وعاد إلى وطنه، وسكن في منطقة السوالم تولى التدريس والعمل في ديوان يوسف باشا القرمانلي، تذكر المصادر أنه ألف بعض الكتب لم تظهر حتى الآن، توفي في 28 رمضان 1229هـ ودفن في جامع أحمد باشا، انظر ترجمته في كتاب تراجم ليبية، د. جمعة محمود الزريقي، ص106 ـ 108، الطبعة الأولى 1998ف.

(6) هو الشيخ أبو الحسن علي بن أحمد الصعيدي العدوي، الإمام الهمام، شيخ مشايخ الإسلام، درس على أعلام الفقه في مصر، وعنه أخذ العديد من العلماء، وله مؤلفات كثيرة، مولده سنة 1112هـ ووفاته سنة 1189هـ، شجرة النور الزكية، ص341 ـ 342/ 1.

(7) النفحات القدسية، المصدر السابق، ص13.

ثانياً ـ تحصيله العلمي:

بعد حفظه للقرآن الكريم، انكب على دراسة العلوم، منها التفسير والحديث والفقه، وسائر العلوم الأخرى التي كانت سائدة في بيئته آنذاك، كل ذلك كان على يد شيوخ وطنه، وذكر الشيخ محمد زغوان: أن الشيخ محمد المسعودي كان من أجلِّ وأعظم علماء طرابلس، وهو نادرة عصره، وفريد دهره في الحفظ والنقل الصحيح، خصوصاً في علمي الحديث والفقه، وقد انتفع به خلق كثير، وشدت إليه في وقته الرحال من كل الجهات ليأخذوا عليه العلم والفتوى ورواية الحديث، واشتهر بذلك في سائر البلاد، وشهد له بالفضل والتقدم والفتوى أهل الفضل وأهل الانتقاد[8].

تذكر المصادر أنه رحل إلى مصر، وجاور بالأزهر، وحضر مجالس أهل العلم والعرفان، ولقي الأفاضل من الأساتيذ الكبار ذوي الشأن، وأجازوه بما لديهم من معقول ومنقول، ويضيف الأستاذ أحمد النائب، أن من شيوخه العالم الجليل، الشيخ العدوي الصعيدي (ت1189هـ)[9]، وهو لبس وقع فيه الأستاذ أحمد النائب، لأن مترجمنا ولد سنة 1214هـ أي بعد وفاة الشيخ علي العدوي الصعيدي بخمس وعشرين سنة، والصحيح أن سنده العلمي يعود إلى الشيخ المذكور، روىٰ ذلك الشيخ محمد زغوان في ترجمته، حيث ذكر أن سند الشيخ محمد المسعودي في التفسير والحديث والفقه وسائر العلوم يعود إلى الشيخ علي العدوي الصعيدي الذي هو شيخ شيوخه[10] ولعله المقصود في قول أحمد النائب الذي يذكر أن الشيخ محمد المسعودي عاد من رحلة إلى بلده، فكان صدراً من صدور الأفاضل، ومن أعيان الأماثل، مؤلفاً متقناً مجيداً، ومن أصحاب الحديث والرواية، حافظاً لحديث البخاري ورجاله، حائزاً من العلوم الأصولية والفروعية أوفر نصيب، ذاكراً للمذهب لا يجاريه فيه أحد[11].

---

(8) النفحات القدسية، المصدر السابق، ص14.

(9) نفحات النسرين، المصدر السابق، ص171.

(10) النفحات القدسية، ص13.

(11) نفحات النسرين، المصدر السابق، ص171.

كان للشيخ محمد المسعودي رحلات أخرى، منها رحلة إلى الآستانة، إذ تم إبعاده إليها، ورحلة إلى تونس لأخذ الإجازة في الطريقة العيساوية، ورحلة إلى بنغازي، وكذلك إلى الجبل الغربي، ولا شك أن هذه الرحلات أضافت إليه معلومات وخبرات من خلال لقاءاته بالعلماء والشيوخ، مما سوف نلقي عليه بعض التوضيح فيما بعد.

ثالثاً ـ طريقته الصوفية:

اشتهر الشيخ محمد المسعودي بالتصوف إلى جانب معرفته لعلوم الفقه والحديث وغيرها، وتذكر المصادر أنه اعتنق الطريقة العيساوية وعمره خمس وعشرون سنة، أخذها عن أحد المتقدمين في هذه الطريقة داخل المدينة، واستمر معه في تلاوة أورادها، إلا أنه شاهد عند الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بعض المنتسبين للطريقة يقومون بضرب الدفوف وأكل المسامير وضرب السكاكين، فأنكر الشيخ محمد المسعودي تلكَ الأفعالَ، وقال: إن الطريقة هي الكتاب والسنة، والطريقة التي تخرج عن الكتاب والسنة ليست بطريقة، وسلم إلى مقدمها سبحته وأوراده، وانسلخ منها[12].

يدل هذا الموقف على قوة شخصيته، وانحيازه إلى آراء بعض الفقهاء الذين ينكرون هذه الأشياء، ولا يسلمون بها، فهؤلاء يرون أن هذه الأفعال بعيدة عن عبادة الله، كما أنها لا تدل على التصوف الحقيقي الذي هو التقرب إلى الله، ولا شك أنه لقي معارضة في هذا الرأي، إلا أنه لم يسلم بالأمر، وظل يبحث عن الحقيقة، لذلك قرر السفر إلى تونس للقاء الشيخ علي أبي القاسم الشريف، شيخ الطريقة العيساوية بتونس[13] فاصطحب معه اثنين من تلاميذه، وهما الشيخ

(12) رحلة الشيخ محمد المسعودي إلى تونس وبنغازي، رواية الشيخ سالم ضرغام عن الشيخ محمد سعيد المسعودي، كتبت يوم 10/ 9/ 1993.

(13) هو الشيخ علي بن قاسم بن محمد المشهور بهاشم القرشي الشريف الحسني الإدريسي، ولد في مدينة تونس، وأخذ العلم عن علماء عصره، منهم والده الذي كان شيخاً للطريقة العيساوية، ثم تولى مشيخة الطريق، وكان يقيم بمدينة تونس قرب الزاوية المسماة زاوية سيدي الحاري، له

علي البوني، والشيخ يوسف معلم، فاكتروا مركباً يسير بالشراع، فانطلق بهم ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان سنة 1264هـ، فواجهتهم رياح شديدة مقابل جزيرة جربة، ثم وصلوا بسلامة الله إلى تونس.

وهناك وجدوا الشيخ علي الشريف مريضاً، ولكنه استقبلهم ورحب بهم ومكثوا مدة في تونس، كان خلالها يتردد على الزاوية العيساوية لحضور الذكر والأوراد، وقد ذكر ذلك في رحلته، حيث قال: وفي ضحى يوم السبت أتينا لدار الشيخ رضي الله عنه، ودخلنا لبيته، وأوقفه بعض الإخوان لمعانقتنا، فعانقني وضمني إليه، وأجلسني فوق سريره، وصافحني وناولني السبحة، ولقنني الذكر، ودعا لي، وأجاز لي، وأوصاني، وذاكرني بمحضر جمع من الأخوان . . . .[14].

بعد عودته من تونس، يذكر الشيخ سالم ضرعام نقلاً عن الشيخ محمد سعيد المسعودي، أن الشيخ استقبل استقبالاً طيباً من سكان باب البحر بالمدينة القديمة، وبنوا له الزاوية الصغيرة، وطلبوا منه المشيخة، فوافقهم وبقي شيخاً للزاوية إلى أن جاء شهر المولد، فقام العيساوية كعادتهم بالاحتفال به، ومارسوا أكل المسامير وضرب السكاكين والدفوف، فأنكر عليهم، وقال لهم: نحن تخالفنا مع المقدمين من أجل هذا؟!!، وقام بوضع تأليف في الأذكار العيساوية، يبدو أنه تناول فيه هذه الأفعال وبيان أنها لم تكن من الدين في شيء، إلا أنهم أصروا على رأيهم، فقرأ عليهم ما كتبه، فما زادهم إلا استكباراً[15].

اشتدت الحيرة على الشيخ، فهو يؤمن بأن التصوف هو التقرب إلى الله

أدب وعلم غزير وأشعار وقصائد، وقد تفقه عليه علماء في التصوف وأجازهم منهم الشيخ محمد المسعودي، توفي رحمه الله في شهر رجب سنة 1265هـ، وردت ترجمته وافية في كتاب حراس العقيدة للأستاذ أحمد القطعاني، ص119 ـ 122، نشر مكتبة مكناس طرابلس، الطبعة الثانية، 2001ف.

(14) رحلة الشيخ محمد المسعودي إلى تونس، مخطوط، كتبه الشيخ محمد سعيد بن أحمد المسعودي، مكون من صفحتين.

(15) رحلة الشيخ محمد المسعودي، رواية الشيخ سالم ضرغام.

تعالى، وأنه بعيد عمّا يقوم به هؤلاء، وهو على درجة من العلم لا تسمح له بالسكوت عن شيء يخالف الشريعة الإسلامية، وشخصيتُه القوية لا تجعله يستكين للضغوط مهما كان نوعها ما دام على سبيل الحق، فأخذ يبحث عن شخص متمكن في الطريقة يفصل في الخلاف بينه وبين القوم، أو يدله على رأي يساعده في تلمس الطريق، فقيل له: إن شيخاً من ذرية الشيخ محمد بن عيسى موجود حالياً في بنغازي اسمه الشيخ محمد الهياض، وذلك بمناسبة افتتاح زاوية جديدة هناك، فتوجه إليه[16].

غير أن الشيخ الأستاذ أحمد القطعاني يذكر أن المقابلة التي كانت في بنغازي كانت مع الشيخ أحمد بن محمد المستغانمي، وهو رجل من كمل أهل الله، أخذ عن سلسلة من علماء الطريقة العيساوية تنتهي إلى الشيخ أبي مهدي الملقب الهياض عن والده شيخ الطريقة والشريعة والحقيقة القطب الغوث سيدي محمد بن عيسى رضي الله عنه[17] وهذه الرواية هي الأقرب للصواب، لأن الفارق الزمني بين وفاة الشيخ الكامل سيدي محمد بن عيسى (ت933هـ/ 1530ف) وحياة الشيخ محمد المسعودي، لا تدل على إمكانية اللقاء بينه وبين حفيد الشيخ الكامل رحمهما الله.

وتتفق الروايات على أن هذا اللقاء يعتبر نقلة نوعية في حياة الشيخ المسعودي الصوفية، سواء تعلق بالأفعال التي كان ينكرها، أو بالكرامات التي تظهر على بعض المتصوفة، حيث أصابه شعور داخلي أغناه فيما يبدو عن السؤال الذي حضر من أجله، وقد ظهرت له كرامة بين يدي الشيخ، فأجازه في الطريقة، وعزز سنده الذي تحصل عليه من تونس بما أفاض الله عليه في بنغازي، فكان هذا التحول الكبير في حياته، والذي أسفر عن ولادة عالم جليل في الطريقة العيساوية الصوفية جمع بينها وبين العلوم العقلية والنقلية من فقه وحديث وأصول وغيرها، مما جعله شيخاً لهذه الطريقة بلا منازع.

---

(16) المصدر السابق.

(17) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، تأليف الأستاذ أحمد القطعاني ص32، نشر مكتبة جمهورية مصر، القاهرة/ الطبعة الأولى 1996ف.

رابعاً ـ نضاله وجهاده في نصرة الحق:

إن ما ورد في سيرته الصوفية يدل على أن الشيخ محمد المسعودي صاحب شخصية قوية، فهو لم يسلم بما كان يعتقده من أن الأفعال التي يقوم بها بعض المتصوفة تدخل ضمن الطريقة الصوفية، ورأينا كيف حاول جاهداً أن يصل للحقيقة، وكلف نفسه عناء السفر بحراً وبراً معرضاً نفسه للمخاطر لكي يصل إلى يقين بصحة ما يقول به أو عدمه، وقوة الشخصية التي يمتاز بها، لم تكن في مجال التصوف فقط، بل كانت تصاحبه في حياته اليومية داخل المجتمع الذي يعيش فيه، وقد صاحب هذه الشخصية المبادئ الصوفية التي يؤمن بها، وعلى رأسها توحيد الخالق عز وجل، وعدم الخضوع لغيره تعالى، وقول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه المبادئ هي التي جعلت للتصوف دوراً في تنمية الشعور بالمسؤولية العامة في المجتمعات الإسلامية، وهي التي جعلت من مترجمنا مجاهداً في سبيلها.

ذكر الشيخ محمد زغوان أن الشيخ محمد المسعودي كان صاحب همة وغيرة دينية، لا تأخذه في الله لومة لائم، فينتصر للفقراء والضعفاء والمظلومين، ويأخذ بأيديهم ويمدهم، ويصرف جهده لأجلهم، ويذهب معهم إلى القضاة والحكام، حتى يتصلوا بحقهم، ولا يبالي بمن يعترض أو ينتقد عليه، بل إذا بلغه ذلك من أحد مال إليه بالإحسان والمواصلة والمودة، ولا يهاب الحكام والأمراء ويرد عليهم إذا ظلموا[18] فهذا العالم الجليل، لم تمنعه حياة التصوف من معايشة هموم الناس الذين يعيش بينهم، فيقوم بمساعدتهم والتضحية من أجلهم، فما الداعي لذلك يا ترى؟.

لقد ولد الشيخ محمد المسعودي أثناء ولاية يوسف باشا القرمانلي (1795 ـ 1832ف) فعاصر ولايته، ثم ولاية علي باشا الثاني، ومن بعده من الولاة الأتراك الذين تولوا في العهد العثماني الثاني، ابتداء من الوالي نجيب باشا إلى

(18) النفحات القدسية، المصدر السابق، ص14.

الوالي محمد حالت باشا، وعددهم أربعة عشر والياً تركياً، وكانت ليبيا في عهد يوسف باشا قد عرفت بعض الاستقرار في نظام الحكم، فإن الفترة التي أعقبتها كانت فترة اضطرابات وعدم استقرار نتيجة تعاقب الولاة لفترات قصيرة، فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى انتشار الفساد والظلم[19] ذلك ما أدى بالشيخ المسعودي أن يسخر حياته في نصرة المظلومين والدفاع عنهم، وتعريض نفسه للمخاطر من أجلهم، بل ويتفانى في تقديم المساعدة إليهم، وعندما يقوم بهذا الدور، كان يمارسه بكل شجاعة ورباطة جأش، دون خوف ولا وجل، ويقابل كل من يسيء إليه بالمحبة والمودة والقول الحسن، ممتثلاً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[20] وهذه هي إحدى الصفات الحميدة التي يجب على المتصوف أن يتحلى بها، أي مقابلة السيئة بالحسنة.

خامساً ـ آثاره العلمية:

مع أن حياة هذا العلم الكبير كانت حافلةً بالأحداث الجسام، والرحلة والتغريب، والصراع الذي عاناه مع بعض معتنقي الطريقة، فإن ذلك لم يمنعه أن يشارك في نشر العلوم بتأليف بعض الكتب التي لم تنشر بعد، وأرجو من الله أن تكون قد سلمت من عادية الزمان، ومحفوظة لدى أسرته الكريمة، وهي نثر ونظم وشروح في علوم مختلفة، ولكن أغلبها في مجال التصوف، وهذه المؤلفات لم ترد في المصادر التي ترجمت له، إلا في رحلة الشيخ محمد زغوان رحمه الله، المسماة بالنفحات القدسية، حيث نقل ذلك عن الشيخ سعيد المسعودي، وهي:

---

(19) ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911ف، تأليف أتوري روسي، ترجمة الدكتور خليفة التليسي، ص492، نشر وتوزيع الدار العربية للكتاب، ط2، 1991ف. والحوليات الليبية، منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، شارل فيرو، نقلها عن الفرنسية وحققها الدكتور محمد عبد الكريم الوافي، نشر المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس الغرب، الطبعة الثانية، 1983ف.

(20) سورة فصلت، الآيتان: 33 و34.

1 ـ كتاب اسمه مغانم المسرات ومراغب الثبات على ملازم الذكر جهراً وفي الجماعات.

2 ـ كتاب اسمه تحذير العشير وتبصير السمير بما حدث في هذا الزمن الخطير.

3 ـ كتاب اسمه نفح الطيب على نظم مؤلفه المسمى تحفة زوار الحبيب ﷺ.

4 ـ كتاب اسمه الإبريز على نظمه عمر التطريز فيما يتعلق بعمر بن عبد العزيز.

5 ـ كتاب اسمه لوامع الغرر على نظمه اللآلئ والدرر في مصطلح علم الأثر.

6 ـ كتاب اسمه النبراس على حزب غوت مكناس.

7 ـ كتاب اسمه ذخائر الأشباح ومتائح الأرواح على حزب الفلاح.

8 ـ كتاب اسمه نشر عطر الورد في طريق شاه نقشبند.

9 ـ كتاب اسمه دائرة العلا على الدور الأعلى لابن العربي.

10 ـ كتاب استغاثة رجز في الدعاء بالنصر للمجاهدين زمن السلطان عبد الحميد.

11 ـ شرحه على نظم الأجهوري في فضائل رمضان.

12 ـ نظم أسماء الله الحسنى.

13 ـ رسالة في طلاق الخلع.

14 ـ له مقطعات وقصائد وأشعار لا تحصر[21].

سادساً ـ وفاته شهيداً:

أيها القارئ الكريم ـ لعلك لاحظت في حياة هذا العالم الجليل، والصوفي الكبير ما يدل على أنها حياة غير عادية، فهو من كبار المصلحين الذين أنجبتهم هذه البلاد، وإِن الأدوار التي قام بها في عصره لم تكن بسيطة، فقد

(21) النفحات القدسية، ص17.

سخر حياته لفعل الخير ونصرة المظلوم، والوقوف في وجه الظالمين من حكام تلك العهود، وبسبب هذا الجهاد الذي ألزم به نفسه تطبيقاً لمبادئ الدين الحنيف ورسالة التصوف التي يعتنقها، ناله كثيرٌ من الظلم، وصل في بعض الأحيان إلى إبعاده عن طرابلس إلى مناطق أخرى داخل ليبيا وخارجها، فكانت في إحدى المرات إلى الجبل الغربي، ومرة أخرى إلى دار الخلافة (الآستانة) التي مكث فيها ما يقارب السنة، إلا أنه لم يكن يضيع وقته سدىً، بل كان علمه الديني والصوفي معه أينما رحل وحل، ففي دار الخلافة (انكبت عليه العلماء والأفاضل، وأخذوا عنه العلم والحديث، والإجازة في الطريقة الجزولية العيساوية، والإذن في قراءة دلائل الخيرات)[22]، ومع ذلك فإنه يعود في كل مرة إلى طرابلس مكرماً معززاً بفضل الله تعالى، فأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وبسبب هذا التفاني في خدمة الخلق، ووقوفه ضد جور حكام ذلك الزمان، ونصرته للمظلومين، فقد تعرض ـ إلى جانب النفي والتغريب عن بلاده ـ إلى إطلاق النار عليه بالبارود قبيل فجر ليلة الثلاثاء فاتح رمضان سنة 1288هـ (14/ 12/ 1871ف) وفارقت روحه المقدسة جسده الشريف بعد صلاة العصر من اليوم المذكور، ودفن بضريح جده الشيخ الصيد بقرية الهنشير شرقي طرابلس، ولم تذكر المصادر من فعل ذلك، ولكنه دون شك، من أهل الظلم والفساد الذين حاربهم، وهكذا نال الشهادة مقابل جهاده في قول الحق ونصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالمين، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

والقلم لا يتوقف عن تقييد هذه السيرة العطرة لعلم من أعلام التصوف في بلادنا، وما ذكرته عنه في هذه الورقات لا يوفِّيه حقه، فحياته وجهاده وآثاره العلمية ما زالت بحاجة إلى دراسات وأبحاث كثيرة، فما قدمته هو جهد المقل، وأرجو من الله تعالى أن يمكن الباحثين من القيام بذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(22) النفحات القدسية، ص14.